مقال مراجعة قراءة في كتاب العراق: من صدمة الهويَّة إلى صحوة الهويات للباحث علي طاهر الحمود

ا.م.د سماح مهدي صالح العلياوي

تدريسي في قسم القانون في جامعة الإمام جعفر الصـــادق (ع)

Review Essay, Reading in the book "Iraq: From Identity Shock to the Awakening of Identities" by the researcher Ali Taher Al-hammood.

الكلمات الافتتاحية :
الهويّة ،الأمة ،القومية،العراق،الاحتلال

Keywords :
,Identity, Nation, Nationalism, Iraq Occupation

Abstract

Identity is the main axis in building the institutional system of the modern state and maintaining sovereignty within a group of factors, the most important of which are: religion, sect, nationalism, family and tribal affiliation, and government policies have affected the process of organizing and classifying the national identity, as belonging to the self and the social environment are distinct elements corresponding to the other and the other. Identity and non – affiliation, therefore identity takes, two forms: similarity and differentiation, and the concept of modern identity has been linked to individual growth and belonging to the land and human liberation from traditional systems, so external variables affect the development of national identity.

الملخص

تُعدُّ الهويَّة المحور الأساسي في بناء المنظومة المؤسَّساتية للدَّولة الحديثة والحفاظ على السّيادة ضمن مجموعة من العوامل، أهمُّها: الدين والطائفة والقومية والانتماء العائلي والقبلي، كما تأثر السّياسات الحكومية على عملية تنظيم وتبويب الهويَّة الوطنيَّة، إذ إن الانتماء للذات والمحيط الإجتماعي عناصر مميّزة للآخر، والّذي يقابله اللّا هوية واللّا انتماء، لذلك تأخذ الهويَّة مظهرين، هما: التشابه والتمايز، وقد ارتبط مفهوم الهويَّة الحديثة بالنمو الفردي والانتماء للأرض وتحرر الإنسان من الأنظمة التقليدية، لهذا تؤثر المُتغيّرات الخارجية في تطوُّر الهويَّة الوطنيَّة.

مقدمة:

شكَّلت الهويَّة والانتماء الوطني نقاط ضعف في هيكليَّة النظام السّياسيّ منذُ تأسيس الدَّولة العراقية، وكانت أحدى الأسباب للسقوط المدوي للأنظمة السّياسيَّة، إذ لم تعزَّز الإحساس الوطني للأفراد، ولم تحقّق التنمية المطلوبة للنهوض الإجتماعي حيث ساهمت في تفكيك البُنية القِيَمية. المضمون شكَّلت ماهيَّة "الهويَّة" (identity) جُل الاهتمامات الفلسفية عند اليونانيين، وتفسير التغيُّرات الّتي تطرأ على فكر الإنسان، إذ أنتهى "هيراقليتوس" (Heraclitus) ٤٧٥ – ٥٣٥ ق. م. إلى أن الإنسان في حركة دائمة ومُطلقة ومُتغيِّره، ثمَّ أشار "أرسطو" (Aristotle) ٣٨٤ – ٣٢٢ ق. م. إلى مبدأ "هو هو" أيّ الهويَّة مؤكِّد بأنه "لا يُمكن للشيء ذاته أن ينتمي ولا ينتمي في الوقت ذاته ومن الوجه ذاته". وخلال القرن الثامن عشر ظهرت حركة فكرية وفلسفية سيطرت على الأفكار الأوروبية سمَّيت بـ"عصر التنوير"، حيث أصبح الوعي والإدراك والأنا والتاريخ من صلب مفهوم الهويَّة، إلاَّ أن الاستعمال الفعلي لمفهوم الهويَّة كان من قِبَل العالمِ الدنماركي الألماني الأميركي المعروف بنظريته في التطوُّر الإجتماعي للإنسان "إريك إريكسون" (Erik Erikson) ١٩٠٢ – ١٩٩٤، إذ اقترح إنموذجاً متطوِّراً للأنا الفرويدية سمَّيت "هويَّة الأنا" وهي اتساق التغيُّرات الفردية مع الحاجات الإجتماعية المستقبلية، والإحساس بوحدة الشخصية بين الجَمَاعة، مشيراً إلى أن الهوية تنقسم إلى نوعين، هما: "هويَّة شخصية أو فردية"، و"هويَّة إجتماعية"، كما أطلق العالمِ "إريك إريكسون" مُصطلح "أزمة الهويَّة" (identity crisis)[١].

وتعرَّف الهويَّة بالتشخص والتمايز، وفي الأساس تعني "هو" أيّ حقيقة الشيء أو حقيقة الشخص المُطلقة، والمشتملة على صفاته الجوهرية الّتي تميزه عن غيره[٢]، وقد ظهرت ثلاث اتجاهات تفسير الهويَّة، وهي: الاتّجاه الجوهري، إذ يرى أن الهويَّة تتشكل من العمق المشترك بين الأفراد والجماعات. والاتّجاه البنائي، يؤكّد أن الهويَّة عبارة عن بناء إجتماعي

تبلور من الظروف الإجتماعية. والاتّجاه التواصلي، يشير إلى أن الهويَّة هي نتيجة للتفاعلات المستمرة بين الأفراد. وعرف العالم البريطاني "أنتوني د. سميث" (Anthony D. Smith) الهويَّة الوطنيَّة بأنها إعادة صياغة للرموز والقِيَم والذكريات والأساطير والتراث الّذي يميز الأمم، ويعرف به الأفراد( ). واقترح العالمِ "روبرت دونشور" (Robert Donchur) أربعة عوامل في تكوين الهويَّة الوطنيَّة، وهي: عوامل أولية، مثل: الدين واللّغة والأدب والأساطير. وعوامل تكوينية، مثل: بناء الدَّولة سياسياً وقانونياً وهيكلة القوَّات المسلّحة. وعوامل تلقينية، مثل: التعليم والثَّقافة. وعوامل خارجية، مثل: التهديدات العدوانية. بينما يرى العالمِ البريطاني "ديفيد ميلر" (David Miller) أن الهويَّة الوطنيَّة تتشكل من الاعتقاد المشترك والالتزام المتبادل، والبُعد التاريخي والجغرافي للهويَّة الوطنيَّة، والثَّقافة العامة، ونمط الوطنيَّة في إطار التفاعلات الدائمة لأفراد المجتمع( ). وتكمن أهميَّة الهويَّة في أنها توجه سلوك الأفراد والجماعات، وهي صورة تعرف الإنسان وتميّزه في إطار العلاقات الإجتماعية، فالهويَّة ليست حقيقة مطلقة، بل إنها نتاج تفاعل إنساني مستمر في مسيرة لا تنتهي من التجارب المتراكمة، ومواجهة الانظمة الاستبدادية. وقد وجد الباحث من الضروري أن يتناول المفاهيم المقاربة لمفهوم الهويَّة، خاصة مفهوم "المواطنة" (Citizenship) الّذي نشأ مع الدُّوَل الوطنيَّة في أوروبا عقب الثَّورة الصِّناعيَّة الّتي ركَّزت على الفردية والعلمانية، وضمن نظريَّة العقد الإجتماعي للفيلسوف الفرنسي "جان جاك روسو" (Jean – Jacques Rousseau) يُعرف المواطنة بأنها تخلي الفرد عن بعض حرياته لصالح المجتمع، وتحقيق مكاسب توازي ما يفقده، وزيادة في القوَّة لحفظ ما لديه( ).

أمَّا "الأمة" (Nation) وردت بمعانٍ مختلفة في اللغة العربية، أهمها: جماعة من الناس كما في قوله تعالى بسم اللّه الرحمن الرحيم: "وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلا

يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ"( ). ويشير مؤسَّس علم الإجتماع "عبد الرحمن بن محمد ابن خلدون" أن تمييز الأمة ليس بالضرورة أن تكون اللّغة أو الدين هي الّتي تشكل الأمم، وإنَّما نتاج تاريخي لا يتبدل بتبدل الدُّوَل، إذ يكون بالعوائد والشعار والنسب كما للعرب والفرس وبني إسرائيل، ويكون بالجهة والسِمَة كما للزنج والحبشة والصقالبة والسودان( ). بينما المفاهيم الغربية ركزت على العوامل الحسية الملموسة وغير الحسية، مثل: اللّغة والدين ولون البشرة والمشاعر والتوجُّهات الذهنية للأفراد، إذ يعرف "جوزيف ستالين" (Joseph Stalin) الأمة بأنها إجتماع تأريخي لمجموعة من الأفراد، يكون أساس اجتماعهم اللّغة والأرض والحياة الإقتصادية، والاتجاهات النفسية النابعة من الثَّقافة المشتركة. أمَّا "القومية" (nationalism) فهي حركة أيديولوجية لنيل وحفظ الاستقلال والوحدة والهويَّة لمجموعة من الأفراد الذين يؤمن البعض منهم بأنهم أمة( ). وتناول الباحث في الفصل الثاني الهويَّة الوطنيَّة من منظور العلوم السِّياسيَّة وعلم النفس الإجتماعي، إذ تؤكِّد النظريات السِّياسيَّة أن الديمقراطية توفر فرصة لتساوي الأفراد والجماعات في حقوق المواطنة، إذ تعتمد على مشاركة المواطنين في صنع القرار السِّياسيّ الّذي يؤدي إلى المزيد من التضامن بين الأفراد وتعزيز الهويَّة الوطنيَّة( ). أمَّا علم النفس الإجتماعي فأبرزت ثلاثة نظريات، هي: نظرية "الاندماج الإجتماعي" (Social integration) ترى أن الأفراد دائماً يخضعون لضغط المعايير الّتي تفرضها الجَمَاعة، إذ يوجه الفرد معتقداته وفقاً لتقييمات الجَمَاعة لأسباب عدَّة، هي: الاقتناع برأي الجَمَاعة، والخشية من الوصم الإجتماعي، والحرمان النسبي، والرغبة في المكافئة الإجتماعية( ). ونظرية "الإحباط" (frustration) إذ كلما تعرضت الجَمَاعة لتجارب مُماثلة من الإحباط واليأس يدفعهم إلى التضامن من أجل رَّد

٨

العدوان والانتقام. ونظرية "تاجفيل" (Tajfel) يرى العالمِ البولندي "هنري تاجفيل" (Henri Tajfel) أن الهويَّة شعور فردي حيث يندفع الأفراد نحو العضوية في الجَمَاعة لتكوين صورة أكثر إيجابية عن الذات.

أمَّا التنظيرات المعاصرة لعلم الإجتماع الّتي تتناول الهويَّة الوطنيَّة فقد برزت ثلاثة نظريات. هي: نظرية "التكامل والاندماج الدَّوْلي" للعالمِ "كارل دويتش" (Karl Deutsch). إذ يرى أن التقنيات الحديثة من شبكات المواصلات والإعلام ونمو العقلانية والعلمنة الّتي تشكل الحداثة تؤدي إلى إلغاء رموز وخصائص الحياة التراثية. وتضعف بالضرورة الانتماءات الثانوية لمصلحة الانتماء إلى النظام السّياسيّ القائم على هويَّة وطنيَّة. كما إن انتماء الأفراد في الجماعات التقليدية سوف تتراجع لمصلحة الجماعات الاختيارية ذات الأهداف المُحدّدة. مثل: الأحزاب[١]. ونظرية "اختراع التقاليد" للعالمِ "إريك هوبسباوم" (Eric Hobsbawm) يرى أن الهندسة الإجتماعية قد اخترعت مفاهيم الأمة والوطن والتقاليد المخترعة هي تلك العادات التقاليد والرموز. وهي أدوات ابتدعتها الفئات الحاكمة من أجل الضبط الإجتماعي. ويشير إلى ثلاثة نماذج من التقاليد المخترعة. وهي: نمو التعليم الإبتدائي. واختراع الاعياد الوطنية والأبنية والتماثيل التذكارية. ويتوصل إلى نتائج تخص الهويَّة الوطنيَّة وهي أن الأمم والهويات الوطنية حصيلة عملية التصنيع في الغرب. ولا يتعدى تاريخ الأمم والهويات الوطنية بداية القرن التاسع عشر. ولقد انتهى عصر الأمم والقوميات في وقت العولمة[١]. ونظرية "نشأة الوطنيَّة" للعالمِ "أنتوني د. سميث" إذ يؤكّد على ضرورة أن يشترك أبناء الوطن الواحد بأحاسيس ومشاعر وذكريات وحقوق ومسؤوليات واقتصاد مشترك كي يتسنى لهم بناء هويَّة وطنيَّة.

وتناول الباحث في الفصل الثالث الهويَّة الوطنيَّة في العراق بين إدماج السُّلطة وإدماج المجتمع، إذ يُمكن اعتبار القرنين الخامس عشر والسادس عشر بداية لتشكيل عناصر الهويَّة العراقية خلال الأعوام (١٥٣٤ – ١٩١٧)، حيث تحوَّل العراق إلى ساحة لتصفية الحسابات بين إمبراطوريتين، هما: العثمانية والصفوية، وقد تميز حكم الإمبراطورية العثمانية بالضعف والهشاشة على الرغم من تطبيق قانون الملكية والأبنية الإدارية، إذ أصبحت القبائل أكثر ميلاً للاستيطان بسبب الضمانات الأمنيَّة الّتي وفرتها السُّلطات العثمانية، لكنها لم تسعى إلى إدماج الجماعات المتباينة مذهبياً ودينياً وقومياً، بل عزَّزت الجانب العرقي والطائفي لمواجهة الدَّولة الصفوية، ومن أجل الدمج الإجتماعي استعملت طبقة من المتعلمين المتأثرين بالتطوَّرات الغربية[٣].

لذلك أصبح من الصعب تشكيل هويَّة وطنيَّة جامعة في العراق، إذ إن التقسيمات الإدارية أثناء الحكم العثماني تشكَّلت على أسس عرقية وطائفية شيعية – سنية شملت ثلاث ولايات، هي: بغداد، البصرة، والموصل، والّتي خاضت العديد من الحوارات بين النخب السِّياسيَّة الراغبة لتوحيد الرؤية المشتركة الداعمة للوحدة الوطنيَّة، ومنذُ الإنتداب البريطانية على العراق عام ١٩١٧، دخلت القبائل في موجة من التناقضات القائمة على أسس دينية ومكتسبات حضرية، فما بين دعم القوَّات العثمانية الّتي ترفع شعار الإسلام، وما بين مواجهة القوَّات البريطانية الّتي أعلنت في اِتّفاقية "سايكس– بيكو" (Sykes – Pico) عن التعهد بمنح شعوب المناطق الخاضعة لسيطرتها حقّ تقرير المصير، ومساعدتها على بناء دولة قابلة للحياة من خلال تنظيم أمورها الإدارية والعسكرية والدستورية[٤].

وبعد سيطرة بريطانيا شكَّلت ضماناً للإبقاء على نفوذها، إذ سعت إلى إطلاق عملية سياسيَّة يكون هدفها بناء الدَّولة العراقية وفقاً لأيديولوجيتها عبرَ استغلال الإقطاعيين، ونخب الأشراف وموظفي الإدارة العثمانية السابقة، لهذا مثَّلت ثورة العشرين في ٣٠ حزيران/يونيو ١٩٢٠، المحور في انطلاق عملية بناء الهويَّة الوطنيَّة العراقية بين الشِّيعة والسنّة حيث نقلت الحكم البريطاني من الحكم المباشر للعراق إلى الحكم غير المباشر، فقد بدأ الملك "فيصل الأول" سياسته لبناء الدَّولة الجديدة، وتتضمَّن الاستقلال التدريجي عن بريطانيا انتهى بالانضمام إلى عصبة الأمم عام ١٩٣٢، ودمج المجتمعات التقليدية الطائفية والقبلية والقومية في كيان الدولة وأجهزتها غير أن الملك لم ينجح كونه اعتمد على منح الامتيازات للأعيان البارزة العربيَّة ذات الانتماء السني( )، لذلك بدأت الانشقاقات الإجتماعية الشيعية والكردية غير الداعمة للنظام الملكي.

ونتيجة للأوضاع الإجتماعية والثَّقافية والإقتصادية المتردية، لا سيّما ارتفاع نسبة الفقر والعجز الإقتصادي، مقابل الوعي القومي للنخب الإصلاحية الّتي دعت إلى إعادة توزيع السُّلطة والثروة والعمل على التنمية المستدامة القائمة على مشاركة الفئات العراقية المختلفة، والّتي كشفت عن التصدع الطائفي في النظام السِّياسيّ بالتزامن مع تطور الوعي بإمكانية أن تتولى الجيوش قيادة دولها للتخلص من الحكم الملكي الرجعي بعد بقاء الحكومة العراقية في حلف "بغداد"، وعدم مساندة مصر جراء العدوان الثلاثي لهذا أعلن الضباط الأحرار الثَّورة ضدَّ النظام الملكي بقيادة "عبد الكريم قاسم" عام ١٩٥٨، وتمَّ تشكيل مجلس للسِّيادة تولى مهام رئاسة الجمهورية تكون من ثلاثة أشخاص من الشِّيعة والسنّة والأكراد، وأعلن النظام الجمهوري بأن الدَّولة هي وحدها من تمثل المصلحة العامة، وقادَ حملة من الإصلاحات شملت توجيه العائدات النفطية، لكن

النظام أبقى الهويَّة في غموض مؤسَّساتي من أجل أحكام السَّيطرة على مفاصل الدولة، مقابل الدخول في سياسة الأقطاب الدَّوْلية حيث الانتماء إلى الاتِّحاد السُّوفياتي ضدَّ العالم الغربي.

وقد نجح انقلاب حزب البعث العربي الإشتراكي بمشاركة الضباط المدعومين من الولايات المتَّحدة بقيادة "عبد السلام عارف" عام ١٩٦٣، الّذي فرض دستوراً جديداً أكَّد على الهويَّة العروبية ودعا إلى الوحدة العربيَّة على اعتبارها خطوة لتحجيم الدّعم العربي المضاد، إذ اعتمد النظام على النخب العسكرية شديدة الولاء في بناء الحرس الجمهوري، والارتكاز إلى المحسوبيات والعلاقات القبلية والمناطقية في مختلف مؤسَّسات الدَّولة، فيما تعرض الجيش إلى سلسلة من الهزائم في مناطق كوردستان، وقد أصر المجلس العسكري بعد موت "عبد السلام عارف" على اختيار "عبد الرحمن عارف" عام ١٩٦٦، الّذي اعترف بثنائية الهويَّة العراقية العربيَّة – الكردية، كما وعد الكُرد بمنحهم حكماً ذاتياً وتمثيلاً كاملاً في إطار الدَّولة العراقية[١]. وسعى حزب البعث إلى إعادة هيكلة القِوى الداخلية، وإنهاء مرحلة من الفشل المتكرر في القيادة من خلال انقلاب "أحمد حسن البكر" عام ١٩٦٨، وقد واجه النظام السِّياسيّ تحدّيات جديدة، أهمُّها: التخلص من سياسة الانقلابات الّتي رسمت ملامح النظام العراقي، ومنع القِوى الأجنبية من زعزعة النظام، وإعادة تعريف الهويَّة الوطنيَّة بما يفرض مشاركة الشّيعة والأكراد، فكانت الديكتاتورية بشكلها القومي أسلوباً لمواجهة التحدّيات، إذ اعدم النظام المئات في الساحات العامة عام ١٩٦٩، ليؤكّد عدم ثقة النظام بأيّ تشكيل خارج حزب البعث العربي الإشتراكي، وتكريسه الحزب الوحيد في إدارة الدَّولة، وخلال التوتُّرات الحدودية العراقية – الإيرانية طرد النظام العراقي الكثير من العوائل العراقية ذات الأصول الشيعية بتهمَّة

التبعية إلى إيران، وشن حرباً ضدَّ الأكراد انتهت بعقد اتّفاقية الجزائر عام ١٩٧٥، إذ تنازل العراق عن جزء من شط العرب لصالح إيران مقابل وقف الدّعم الإيراني للتمرد الكردي، واستخدم النظام سياسيَّة الترهيب في تعامله مع الشّيعة بعد مظاهرات سُمِّيت بـ"إنتفاضة صفر" عام ١٩٧٧، الّتي راح ضحيتها المئات[٧]. وبعد تولى "صدام حسين" السُّلطة عام ١٩٧٩، وبدعم أميركي أعلن الحرب على إيران لمدة ثمانِ سنوات، وقام بتصفية خصومه من حزب البعث العربي الإشتراكي، وأعلن الحرب على الأكراد، وقادَ سياسة واسعة النطاق لترحيل الكثير من العوائل الشيعية إلى إيران تحت ذريعة التعاون والتبعية، ثمَّ موجة من الإعدامات طالت قيادات ورموز دينية شيعية، واستعمل سياسة القمع المفرط للحريات المدنية والدّينيَّة، ورسم هويَّة وطنيَّة جديدة تقوم على فكرة أسطورية مميزة، وهي "القائد الضرورة" (Commander Necessity)[٨]. وبعد أن خرج النظام العراقي من الحرب مع إيران بديون أثقلت كاهله توجه نحو الكويت تحت ذريعة تخفيض الديون، وحلَّ المشاكل الحدودية انتهت باجتياح القوَّات العراقية للأراضي الكويتية، ثمَّ تشكيل تحالف دولي لأكثر من ثلاثين دولة بقيادة أميركية لإخراج الجيش العراقي وفرض عقوبات إقتصادية على العراق. وقد أصدر مجلس الأمن الدَّوْلي قرار حظر الطيران المرقَم (٦٨٨) في نيسان/أبريل ١٩٩١، لحماية الأكراد في الشمال من قمع السُّلطة، والقرار المرقَم (٦٦١) في آب/أغسطس ١٩٩٠، إذ تضمَّن جملة من المُعوِّقات على النشاط التجاري في العراق لمنع حريَّة تدفق السِّلع والسَّيطرة المالية، ثمَّ عادَ مجلس الأمن الدَّوْلي ليؤكّد القرار المرقَم (٦٨٨) في أيار/مايو ١٩٩٢، لحماية الشّيعة في الجنوب بعد "الانتفاضة الشعبانية"، وامتدّت منطقة الحظر شمالاً من خطّ العرض (٣٦)، وجنوباً حتى خطّ العرض (٣٢)[٩]، وأخذت أميركا وبريطانيا على عاتقهما تنفيذ القرار، وإقامة مناطق حظر سُمِّيت "الملاذ

الآمن". واستفاد الكُرد من "الملاذ الآمن" في تشكيل إقليم، بينما بقي الشّيعة في الجنوب تحت إكراه السُّلطة التي عملت على قتل وتهجير وتجريف مناطق واسعة، ولعلَّ تراكم عوامل اليأس والإحباط جراء الحروب المتكررة والحصار الإقتصادي واستشراء الفساد والمحسوبية ساهمت في تفكيك الهويَّة الوطنيَّة العراقية. لكن الباحث أغفل أن الاحتلال عام ٢٠٠٣، أدَّى إلى تناقضات في البُنية الإجتماعيَّة، وتكريس علاقاتها العنصريَّة أو الطائفيَّة أو الإثنية أو العشائرية، لإعادة صياغتها على نحو يتوافق مع مصالحها الذاتية، إذ باشرت سلطة الاحتلال بشرذمة الهويَّة الوطنيَّة عبرَ مجلس الحكم الانتقالي والمُحاصَصة السّياسيَّة القائمة على أسس عرقيَّة ومذهبيَّة، وتفكيك الجيش. كما إن إرباك النُخَب السّياسيَّة جعل المواطن لا يشعر بهويَّته الوطنيَّة الواحدة ما اضطره إلى الركون للمكوِّنات الفرعية الّتي انعشت الانتماء الطائفي والمناطقي، وأصبحت الهويات الفرعية طاغية على الهويَّة الوطنيَّة في ديباجة الدستور العراقي عام ٢٠٠٥، الّتي ركَّزت على هويَّة المكوِّنات الفرعية على حساب الهويَّة الوطنيَّة، وتمَّ التأكيد على ذكر الطوائف بشكلٍ مذهبي وعرقي "سنَّة، شيعة، أكراد، وتركمان". لكن المجتمع العراقي بقى متمسكاً بالهويَّة الوطنيَّة، إذ تحدَّثت وزيرة الخارجية الأميركية السابقة "كونداليزا رايس" (Condoleezza Rice)في آب/أغسطس ٢٠٠٤، بالقول: "من دواعي أعجابي أن العراقيين لحدِّ الآن، سواء كانوا أكراداً أم سُنَّة أم شيعة، أم من غيرهم من المجموعات العرقيَّة المتعدِّدة، قد أظهروا أنَّهم يريدون حقاً العيش باعتبارهم شعباً واحداً في عراق موحَّد"( ). لكن سرعان ما حمَلت الدعاية الأميركية تشوّهات مقصودة، للتأثير على اللّحمة الوطنيَّة، وبدأ التركيز على الهويات الإثنية والطائفية، وتغييب دولة العراق، أمّا بقية مكوِّنات المُجتمع العراقي من تركمان، ومسيحيين وإيزيديين، وصائبة فقد تمَّ تجاهلهم.

لهذا أشار زعماء الدين ورؤساء العشائر الشيعية والسنية إلى ضرورة الحفاظ على الوحدة الوطنيَّة باعتباره مُتغيّراً له أثره على التماسك الإجتماعي، والوقوف بوجه السياسات المذهبية، ومحاولات التفرُّقة. كما اعرب التركمان عن رغبتهم بوجود دستور عراقي يضمن خصوصيتهم القومية، ويعترف بكونهم مكوِّناً أساسياً من الشَّعب، والإقرار بحقوقهم دون تمييز. كذلك أشار المؤتمر التأسيسي للمسيحيون الكلدو- آشوري إلى بناء عراق حرّ مستقلّ، قائم على التعاون بين مختلف مكوِّناته أمّا الحركات الكُردية فقد أعربت عن طموحاتها الاستقلالية[٢]. ثمَّ أفرد الباحث الفصل الرابع إلى منهجية الدراسة ونتائجها الميدانية، لكن دون الإشارة في استطلاعات الرأي الّتي وضعها الباحث إلى دور الحروب في تفكيك الهويَّة الوطنيَّة، أو تأثير السِّياسيَّة الحزبية الفردية على قابلية الانتماء الوطني للأفراد، إذ إن العراق عانى من الأنظمة الديكتاتورية الّتي أفقدت الأفراد قدرت الاندماج الوطني، بالإضافة إلى الاحتلال عام ٢٠٠٣، الّذي عزَّز من فرضيات الفرز الطائفي الشيعي- السني، والعرقي العربي- الكردي. ويجعل الباحث الفصل الخامس إلى الاستنتاجات ومناقشة الفرضيات، حيث توصل إلى نتائج ميدانية، أهمُّها: عدم افصاح العديد من المبحوثين الشّيعة عن مستواهم الإقتصادي، في حين بدوا واثقين عند التعريف بالمذهب الفقهي الّذي ينتمون إليه، بالإضافة إلى تحفظ أهل السنّة العرب في الإفصاح عن المذهب الفقهي الّذي ينتمون إليه، وأن غالبية المبحوثين اختاروا الدين ثمَّ المحافظة ثمَّ القومية للتعريف بالهويَّة الوطنيَّة[٣]. لعلَّ هذه النتائج تعود إلى أسباب عدَّة، أهمُّها: أولاً، أن الشّيعة يختلفون عن بقية المذاهب الإسلاميَّة في اتباع المرجع الأعلى الممثل للأمام، وقد وجد أبناء المذهب الشيعي من سقوط النظام الديكتاتوري فرصة للتعبير عن رؤيتهم وانتمائهم العقائدي. ثانياً، الأنظمة الاستبدادية الّتي تداولت الحكم في العراق أصرت على

التجهيل المتعمد لمسألة الهويَّة والانتماء الوطني، وتجيير الدَّولة باسم الحاكم، لذلك تجد من الصعوبة عند المواطنين التمييز بين الهويَّة الوطنيَّة والانتماء للأرض، وبين طبيعة النظام السِّياسيّ والحكومات المتعاقبة. ثالثاً، الاحتلال الأنجلو- أميركي على العراق عام ٢٠٠٣، سعى إلى طرح البدائل الطائفية، والّتي ساهمت في تأجيج الوضع، وأدخلت أبناء المذهبين الشيعي والسني في دوامة المناوشات والاتهامات المتبادلة.

الخاتمة :تُعدُّ الهويَّة المحور الأساسي في بناء الدَّولة الوطنية القائمة على احترام الهويات الفرعية والتعدُّدية الطبقية، والّتي تزيد من أواصر التعاون والتعايش السِّلمي لبناء الأوطان، وتثبيت دعائم العيش المشترك، لكن الأنظمة الديكتاتورية في العراق دفعت الأفراد إلى التَخَنْدَق والانطوائية.

الاستنتاجات

١- تمكن الباحث من الإشارة إلى ماهيَّة الهويَّة الوطنيَّة وضرورتها في المجتمعات المتحضرة، وأعطى التفسير التاريخي والسِّياسيّ لتشكيل الهويَّة العراقية، والمعوِّقات الّتي أثرت في بناء هويَّة وطنيَّة شاملة منذُ تأسيس الدَّولة، لكن الباحث لم يتناول الدَّور الأهم في مرحلة الاحتلال الأميركي عام ٢٠٠٣، على الرغم من أن عنوان الكتاب جاء بصيغة مطلقة من دون تحديد مدة زمنية.

التوصيات

١- يجب أن تركز الدراسات الأكاديمية على مدة زمنية مُحدِّدة، ولأن الباحث لم يحدِّد الإطار الزمني للدراسة فأن المطلق يجري على أطلاقه، لذلك جاءت الدراسة بشكل مجتزئ لم تتناول المُتغيِّرات المؤثرة على الهويَّة الوطنيَّة في مرحلة ما بعد الاحتلال عام ٢٠٠٣.

٢- ضرورة أن تركز الدراسات الميدانية الّتي تتناول مسألة الهويَّة والسِّيادة على طبقات

-٣

٤- معينة من المجتمع، كونها من المواضيع الّتي تحتاج إلى الوعي والثَّقافة اللازمتين لتوصيف الواقع.

قائمة المصادر والمراجع

أولاً: المصادر

١. القرآن الكريم.

ثانياً: المراجع

أ: الكتب العربيَّة

٢. ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، مقدمة ابن خلدون، الجزء الأول، تحقيق: أ. م. كاترمير، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٩٢.

٣. الحسني، عبد الرزاق، تأريخ العراق السِّياسيّ الحديث، الجزء الأول والثاني، دار الرافدين للطباعة والنشر، بيروت، ٢٠٠٨.

٤. الحمود، علي طاهر، العراق: من صدمة الهويَّة إلى صحوة الهويات، مؤسَّسة مسارات، بغداد، ٢٠١٢.

٥. الزيدي، رشيد عمارة ياس، أزمة الهويَّة العراقية في ظلّ الاحتلال، المجلة "العربيَّة للعلوم السِّياسيَّة". مركز دراسات الوحدة العربيَّة، بيروت، العدد ١٤، ربيع، ٢٠٠٧.

٦. عبد الجبار، فالح، الديمقراطية: مقاربة سوسيولوجية تاريخية، معهد الدراسات الإستراتيجية، بغداد، ٢٠٠٦.

ب: الكتب المترجمة

٧. أندرسن، ليام وستانسفيلد، غاريث، عراق المستقبل: دكتاتورية، ديمقراطية أم تقسيم؟، ترجمة: ترجمة رمزي ق. بدر، دار الوراق للنشر، لندن، ٢٠٠٥.

٨. هالبيرن، كاترين وآخرون، الهويات: الفرد، الجَمَاعة، المجتمع، دار التنوير، الجزائر، ٢٠١٥.

٩.

١٠. تريب، تشارلز، صفحات من تاريخ العراق، ترجمة: زينة جابر إدريس، الدار العربيَّة للعلوم ناشرون، بيروت، ٢٠٠٨.

١١. روسو، جان جاك، العقد الإجتماعي، ترجمة: عادل زعيتر، مؤسَّسة هنداوي، القاهرة، ٢٠١٣.

١٢. سلوغلت، ماريون فاروق وسلوغلت، بيتر، من الثَّورة إلى الديكتاتورية: العراق منذُ ١٩٥٨، ترجمة: مالك النبراسي، دار الجمل، بيروت، ٢٠٠٣.

١٣. سميث، أنتوني د.، الرمزية العرقية والقومية مقاربة ثقافية، ترجمة: أحمد الشيمي، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ٢٠١٤.

١٤. غالبريث، بيتر و.، نهاية العراق، كيف تسبّب القصور الأميركي في إشعال حرب لا نهاية لها، ترجمة: إياد أحمد، الدَّار العربيَّة للعلوم ناشرون، بيروت، ٢٠٠٧.

١٥. هوبسباوم، إريك، الأمم والنزعة القومية، ترجمة: عدنان حسن، دار المدى للثَّقافة والنشر، دمشق، ١٩٩٩.

ج: الكتب الأجنبية

15- Branco, Manuel Couret, Political Economy for Human Rights, Routledge press, New York, 2020.

16- Miller, David, On Nationality, Oxford University Press, United kingdom, 1995.

17- Giddens, Anthony, The Third Way: The Renewal of Social Democracy, Polity Press, United kingdom, 1998.

18- Deutsch, Karl W., The Analysis of International Relations, Prentice – Hall Inc. Press, New Jersey, 1968.

الهوامش

(١) للمزيد يُنظر: كاترين هاليرن وآخرون، الهويات: الفرد، الجَماعة، المجتمع، دار التنوير، الجزائر، ٢٠١٥.

(٢) مجمع اللّغة العربيَّة، المعجم الوسيط، الجزء الثاني، الطبعة الرابعة، مكتبة الشّروق الدّوْلية، القاهرة، ٢٠٠٨، ص٩٩٨.

(٣) للمزيد يُنظر: أنتوني د. سميث، الرمزية العرقيّة والقومية مقاربة ثقافية، ترجمة: أحمد الشيمي، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ٢٠١٤.

(٤) David Miller, On Nationality, Oxford University Press, United kingdom, 1995, P. 49.

(٥) جان جاك روسو، العقد الإجتماعي، ترجمة: عادل زعيتر، مؤسّسة هنداوي، القاهرة، ٢٠١٣، ص٨١ – ٩٩.

(٦) القرآن الكريم، سورة هود، الآية (١١٨).

(٧) عبد الرحمن بن محمد ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، الجزء الأول، تحقيق: أ. م. كاترمير، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٩٢، ص٨٥.

(٨) أنتوني د. سميث، المرجع السابق، ص٢٠ – ٢٣.

(٩) فالح عبد الجبار، الديمقراطية: مقاربة سوسْيولوجية تاريخية، معهد الدراسات الإستراتيجية، بغداد، ٢٠٠٦، ص٢١.

(١٠) Anthony Giddens, The Third Way: The Renewal of Social Democracy, Polity Press, United kingdom, 1998, P. 44 – 56.

(١١) Karl W. Deutsch, The Analysis of International Relations, Prentice – New Jersey, Hall Inc. Press, 1968.

(١٢) إريك هوبسباوم، الأمم والنزعة القومية، ترجمة: عدنان حسن، دار المدى للثّقافة والنشر، دمشق، ١٩٩٩، ص١٠٥ – ١٣٥.

(١٣) تشارلز تريب، صفحات من تاريخ العراق، ترجمة: زينة جابر إدريس، الدار العربيَّة للعلوم ناشرون، بيروت، ٢٠٠٨، ص٤١.

(١٤) عبد الرزاق الحسني، تأريخ العراق السِّياسيّ الحديث، الجزء الأول، دار الرافدين للطباعة والنشر، بيروت، ٢٠٠٨، ص١٠١ – ١٠٦.

(١٥) عبد الرزاق الحسني، تأريخ العراق السِّياسيّ الحديث، الجزء الثاني، دار الرافدين للطباعة والنشر، بيروت، ٢٠٠٨، ص١٠١ – ١٠٦.

(١٦) تشارلز تريب، المرجع السابق، ص٢٣٩ – ٢٤٨.

(١٧) ماريون فاروق سلوغلت وبيتر سلوغلت، من الثورة إلى الديكتاتورية: العراق منذُ ١٩٥٨، ترجمة: مالك النبراسي، دار الجمل، بيروت، ٢٠٠٣، ص١٤٦ – ١٥٧.

(١) ليام أندرسن وغاريث ستانسفيلد، عراق المستقبل: دكتاتورية، ديمقراطية أم تقسيم؟، ترجمة: ترجمة رمزي ق. بدر، دار الوراق للنشر، لندن، ٢٠٠٥، ص١٤٧ – ١٥١.

(٢) بيتر و. غالبريث، نهاية العراق، كيف تسبّب القصور الأميركي في إشعال حرب لا نهاية لها، ترجمة: إياد أحمد، الدّار العربيّة للعلوم ناشرون، بيروت، ٢٠٠٧، ص٤٧ – ٥٠.

(٣) Peter. W, Galbraith, The End Of Iraq, How American Incompetence Created Awar Without End, 2006, P. 115. New – york, Simon and Schuster,

(٤) رشيد عمارة ياس الزيدي، أزمة الهويَّة العراقية في ظلّ الاحتلال، المجلة "العربيَّة للعلوم السِّياسيَّة"، مركز دراسات الوحدة العربيَّة، بيروت، العدد ١٤، ربيع، ٢٠٠٧، ص١١.

(٥) علي طاهر الحمود، العراق: من صدمة الهوّيّة إلى صحوة الهويات، مؤسَّسة مسارات، بغداد، ٢٠١٢، ص٢٦٣ – ٢٦٦.